لطائف المعارف [القمران]



الحمد لله الذي أحكم كل شيئا خلقه وأحسن كل شيئا صنعه وأشهد أن لا إله إلا الله لا رب غيره ولا شريك معه وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه وعلى سائر من اقتفى أثره واتبع منهجه بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد
فهذا لقاء متجدد عبر برنامجكم أو من برنامجكم [لطائف المعارف] وعنوان هذه الحلقة [القمران] .ندرك أن الصناعة العربية يكثر فيها ما يسمى بالتغليب والتغليب أن يؤتى إلى اثنين مثنى فيعمد إلى تسميتهما بأحدهما لاشتراك كثير بينهما ثم إن التغليب له طرائقه يعني يختلف من حال إلى حال في أسبابه فمثلا : يقال للسبطين الكريمين الحسن والحسين يقال لهما: [الحسنان] لأن الحسن اكبر من الحسين ، ويقال لمكة والمدينة [المكتان] لأن مكة عند جمهور العلماء أفضل من المدينة ويقال للشمس والقمر [القمران] لأن القمر مذكر والشمس مؤنث قال المتنبي:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب *** ولا التذكير فخرا للهلال
ولو كل النساء كمن فقدنا *** لفضلت النساء على الرجال

الذي يعنينا أنهم قالوا [القمران] لأن القمر مذكر والشمس مؤنث وقد يقال غير ذلك يقال [العمران] في حق أبي بكر وعمر ونسب إلى عمر لأن لفظ أبي بكر مركب تركيب إضافي واسم عمر مفرد ، نحن اليوم سنتحدث عن [القمرين] عن الشمس والقمر فما عسانا أن نقول؟.
نقول والله الموفق إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله مخلوقتان لله تبارك وتعالى خلقهما الله جل وعلا جعل احدهما آية مبصرة وهي الشمس ، وجعل الآخر منهما آية ممحوة وهي القمر وقال جل وعلا يخبر عن عظيم صنعته وجليل قدرته: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم ** وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ** لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) الشمس جعلها الله جل وعلا آية للحياة المعيشية، فالذين يزرعون إنما يزرعون نعرف أن هناك غرس وهناك حصاد هذا كله مبني على البروز الشمس فثمة أنواع من الحبوب والثمار لها مواسم معينة تزرع فيها ولها مواسم معينة تحصد فيها

أنا لست أنسى قريتي السمراء في غيد الحصاد *** والسنبل المتجمد الشرقي يحلم بالرقاد
وخطى الكماة الكادحين *** تروح تضرب في اقتياد
هي ذكريات لم تزل محفورة في خاطري
هي ذكريات لم تزل تسقي خريف الشاعر
يا واحة العمر الجديد على الطريق الساحر
أنا عائد يوم إليك مع الربيع الزاخر
في نسمة الشمس المضيئة في النسيم العابر
في لهفة خفقت بها روح المحب الذاكر

الغاية أن هناك مواسم غرس مواسم حصاد مبنية على بروز الشمس أم القمر فقد جعله الله جل وعلا ميقات لحياتنا الدينية (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ، (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) فالقمر جعله الله جل وعلا عنواناً

ميزاناً ميقاتاً لحياتنا المتعلقة بالعبادات ، وأن معاشنا وحياتنا المعيشية خاصة عند الزراع فإنها مبنية على بروز الشمس هذا من الفوارق ما بين الشمس والقمر.
الشمس حبسها الله جل وعلا لنبي يقال له (يوشع بن نون) ويوشع بن نون هو فتى موسى الذي ورد ذكره في قول الله جل وعلا (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ) وقد حكم بني إسرائيل قبله وأنت تعلم أيه المبارك في خلفيتك الثقافية التاريخية أن الله جل وعلا أمر بني إسرائيل بالدخول على الجبارين فامتنعوا فحكم الله جل وعلا عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض في خلال الأربعين سنة هذه مات هارون أولا ثم مات موسى ثم حكم وساس بني إسرائيل بعد موسى وهارون يوشع بن نون عليه السلام حارب الجبارين واليهود تعظم يوم السبت وتجعله باللغة بين قوسين (إجازة) أي لا يقاتلون يوم السبت فلما كان مساء الجمعة وكادت الشمس أن تغيب فإذا غابت لا قتال لأنه لا يوجد آنذاك أشياء يتكئون عليها ويبصرون بها غير الشمس فإذا غابت وهو لم تفتح له البلدة اضطر إلى أن يقاتل يوم السبت ولا قتال عندهم يوم السبت فقال يخاطب الشمس:(إنك مأمورة وإنني مأمور) أي أنت مأمورة أن تغيبي وأنا مأمور أن افتح هذه البلدة وأقود هذه الجيوش (اللهم احبسها عني) فحبس الله عنه الشمس أخر غروبها تكرمة له هذا من أتاه الله جل وعلا بعض أنبياءه ولهذا قال شوقي
فقفي يا أخت يوشع خبرينا *** أحاديث القرون الغابرينا
فأخت يوشع في مصطلح شوقي مبني على خلفية ثقافية تاريخية هي الشمس حبسها الله جل وعلا ليوشع بن نون والنبي صلى الله عليه وسلم قال:(يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس؟) قال: قلت الله ورسوله أعلم قال:(فإنها تأتي فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيأذن لها حتى يأتي يوم لا يأذن الله لها فيقول ارجعي من حيث غبتي فتخرج على الناس من المغرب فهذا معنى قول الله: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ) القمر لا يتعلق به بشيء من هذا لكن القمر عند جماهير الناس أو عند عموم أهل الأرض مضرب للجمال فإذا أرادوا أن يشبهوا أحدًا أو يذكروا جمال احد من الناس وصفوه بالقمر ليلة البدر وهذا حتى في السنة ، فإن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه وأرضاه قال: (خرجت في ليلة أضحيان) أي ليلة القمر فيها مكتمل (فرأيت القمر ورأيت النبي ﷺ عليه حلة حمراء فجعلت انظر إلى البدر وانظر إلى وجه رسول الله ﷺ فلهو عندي أجمل من القمر) كما أنه البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه وأرضاه قيل له: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: (لا بل مثل القمر) وهذا أمر لا يحتاج إلى شاهد في أن الناس يضربون المثل في الجمال بالقمر يقول (عمر بن أبي ربيعة) وهو شاعر حاد كثيرا عن الصواب في شعره
قالت الكبرى أتعرف ما الفتى *** قالت الوسطى نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها *** قد عرفناه وهل يخفى القمر
فعجز هذا البيت الثاني شهير بين الناس يجري مجرى الأمثال والشاهد منه في مقامنا هذا في درسنا المبارك هذا أن الناس يضربون المثل بالقمر في قضية الجمال ، والله تبارك وتعالى جرت سنته انه يظهر النقص في خلقه حتى يستبين للناس الكمال في وجهه جل وعلا ، فالشمس تكسف على أن يفتن الناس بها تكسف والقمر يخسف ولهذا قال الله جل وعلا ذكر في سورة القيامة أن القمر يخسف وذكر في سورة التكوير: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وهذا كله حتى يتأتى للناس أن يعلموا أن الوجه الذي لا يحول ولا يزول ولا يتغير هو وجه ربنا الأكرم جل جلاله ، بل إن وجه نبينا ﷺ ربما هذا مر معنا في درس سابق عليه الصلاة والسلام شج رأسه كسرت رباعيته سال الدم في وجهه وهو ﷺ وجهه أكرم وجوه المخلوقين قاطبة ومع ذلك نحن نرى في كل هذا كمال صفات ربنا جل وعلا وصدق الله القائل (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)وقال جل ذكره (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ورد الشمس والقمر في خبر خليل الله إبراهيم يوم ناظر قومه الله يقول : (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ** فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ) وإبراهيم يعلم أن هذا سيأفل يأفل لا محالة قال (قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ** فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي) هو يوهم عبدت الكواكب انه يريد الخير وهو فعلا يريد الخير لكنه يتنزل لهم رغبة في دعوتهم فلما أفل اظهر التضرع (قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ** فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً) ونحن نعلم أن إبراهيم رأى الشمس مرارا قبل ذلك اليوم لكنه تعامل معها على قدر عقول من
عقول من يخاطبهم كأنه يراها لأول مرة (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ** إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
الشمس كُسفت في عهد نبينا ووافق يوم كسوفها وفاة (إبراهيم) ابن النبي وإبراهيم ولد للنبي من جارية يقال لها (مارية) مكث مسترضعا في عوالي المدينة ثمانية عشر شهرا فلما أتم ثمانية عشر شهرا توفاه الله ، فلما توفاه الله بكى النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحديث الشهير (وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون) لكنه قال (لا نقول إلا ما يرضي ربنا) فلما كسفت الشمس في ذلك اليوم قال بعض الناس إنما كسفت الشمس لموت إبراهيم فخرج النبي على الناس يعلمهم مسألة عقدية (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عبادة لا يكسفان لموت احد ولا لحياته فإذا رأيتم مثل ذلك فافزعوا إلى الصلاة) ثم فزع إلى الصلاة يجر ردائه وصلى بالناس صلاة بركوعين وسجود كالمعتاد لكن زاد في الركوع ركوعاً آخرا ثم خطب في الناس يعظهم ويذكرهم بالآخرة ويقول لهم أنه (ما من شيء توعدون به إلا وقد رأيت في مقامي هذا) وحديثه ليس هذا موضع بسط القول فيه ، لكن الغاية منه أن تعلم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بقدر ربي تبارك وتعالى كما قال الله (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) وكما قال الله (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) ومع ذلك عُبدا من دون الله ولهذا قال الله (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) وقد مر معنا في لقاء ماضٍ أن الهدهد أنكر على قوم بلقيس إنهم يعبدون الشمس ودعته فطرته إلى أن يستنكر ذلك منهم وأن يخاطبهم بقوله (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الشمس والقمر ذكرهما الله جل وعلا بأنهما آية مبصرة وآية ممحوة في سورة الإسراء (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) ولهذا يرد في القرآن كثيرا قضية استخدام (ليلة) خاصة في قصص الأنبياء لأنها تتعلق بشرائع الناس ما يتعلق بمعادهم لا بمعاشهم والأنبياء إنما يعنون أعظم عناية بما يكون من أمور الدين ولهذا قال الله جل وعلا (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) ولم يقل جل وعلا (وواعدنا موسى ثلاثين يوما) والمشهور أن الله جل وعلا واعد موسى ثلاثين ليلة هي ليالي شهر ذي القعدة وأتمها الله بعشر هي ليالي شهر ذي الحجة فيكون بهذا الاعتبار أن الله جل وعلا كلم موسى في يوم النحر ومعلوم أن لموسى ميقاتين ميقات زماني: وهو عاشر ذي الحجة على الأظهر وميقات مكاني على قول واحد وهو جبل الطور الذي كلم الله جل وعلا عنده موسى ، الذي يعنينا كما بينت أن القمر آية جعلها الله جل وعلا لأمور حياتنا الدينية كما جعل الشمس آية لحياتنا المعيشية التي فيها أرزاقنا وفيها معاشنا .

يتحرر من هذا كله أن الشمس والقمر ذُكرا كذلك في الشعر العربي لكن الشمس كانت اقل حظ من ذكر القمر لأن القمر يتعلق بالجمال أما قول المتنبي الذي ذكرناه في الأول :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب *** ولا التذكير فخرا للهلال
ولو كل النساء كمن فقدنا *** لفضلت النساء على الرجال

فقد قاله مجاملة في رثاء إحدى قريبات سيف الدولة الحمداني ونحن نعرف أن المتنبي كان له باع طويل في مدح سيف الدولة الحمداني . هذا أيها المباركون ما تيسر إيراده وتهيئ إعداده حول آيتين عظيمتين من آيات الله هما [الشمس والقمر] . وصلى الله على محمد وعلى آله والحمد لله رب العالمين .

اللهم انك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا

زورق الخير